واعلم أن لهذه الخصال وسائط وأطرافاً فيها ظهر صدق الواصف وغلو الغالى واقتصاد المقتصد وقد اقترفها «اختصرها» اختيار الناقدين فمنهم من قال: أحسن الشعر أصدقه، قال لأن تجويد قائله فيه مع كونه فى إسار الصدق يدل على الاقتدار والحذق، ومنهم من اختار الغلو حتى قيل: أحسن الشعر أكذبه، لأن قائله إذا أسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف امتد فيما يأتيه إلى أعلى الرتبة، وظهرت قوته فى الصياغة وتمهره فى الصناعة واتسعت مخارجه وموالجه فتصرف فى الوصف كيف شاء لأن العمل عنده على المبالغة والتمثيل لا المصادفة والتحقيق وعلى هذا أكثر العلماء بالشعر والقائلين له .

وبعضهم قال : أحسن الشعر أقصده لأن على الشاعر أن يبالغ فيما يصير به القول شعراً فقط. فما استوف أقسام البراعة والتجويد أو جلها من غير غلو فى القول ولا إحالة فى المعنى ولم يخرج الموصوف إلى أن لا يؤمن بشىء من أوصافه لظهور السر فى إبانة وشمول التزويد لأقواله كان بالاختيار والانتخاب أولى، ويتبع هذا الاختلاف ميل بعضهم إلى المطبوع وبعضهم إلى المصنوع. والفرق بينهما أن الدواعى إذا قامت فى النفوس وحركت القرائح عملت القلوب، فإذا جاشت العقول بمكنون ودائعها، وظهرت مكتسبات العلوم وضروریاتها نبعت المعانى ودرت أخلاقها وافتقرت خضبات الخواطر إلى جليات الألفاظ فمتى رفض التكلف والتحمل وخلى الطبع المهذب بالرواية المدرب فى الدراسة لاختياره فاسترسل غير محمول عليه ولا ممنوع مما يميل إليه أدى من لطافة المعنى وحلاوة اللفظ ما يكون صفواً بلا كدر وعفوا بلا جهد، وذلك هو الذى يسمى المطبوع ومتى جعل زمام الاختيار بيد التعمل والتكلف عاد الطبع مستخدماً متملكاً وأقبلت الأفكار تستحمله أثقالها وتراوده فى قبول ما يؤديه إليها مطالبة له بالأغراب فى الصنعة وتجاوز المألوف إلى البدعة فجاء مؤداه وأثر التكلفة يلوح على صفحاته وذلك هو المصنوع.

وقد كان يتفق فى أبيات قصائدهم من غير قصد منهم إليه اليسير النذر فلما انتهى قرض الشعر إلى المحدثين ورأوا استغراب الناس للبديع على اقتنائهم فيه أولعوا بتزوده إظهاراً للاقتدار أو ذهاباً إلى الإعزاب، فمن مفرط ومقتصد ومحمود فيما يأتيه ومذموم وذلك على حسب نهوض الطبع بما يحمل ومدى قواه فيما يطلب منه ويكلف فمن مال إلى الأول فلأنه أشبه بطرائق الأعراب لسلامته فى السبه واستوائه عند الفحص. ومن مال إلى الثانى فلدلالته